17 ème Année No. 856

Lundi — 28 — 11 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٨٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ من شهر صفر سنة ١٣٦٩ — ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة »

أحقا مات على محمود طه ؟!

أحقا رفاقَ على لن تروه بعد اليوم يجيى المجالس بروحه اللطيف ، ويؤنس الجلاس بوجهه المتهلل ، ويدير على السمّار أكؤساً من سلاف الأحاديث تبعث المسرة فى النفوس ، وتحدث النشوة فى المشاعر ؟

أحقا عشاق على لن تسمعوه بعد اليوم ينشد القصائد الرقيقة ، ويخرج الدواوين الأنيقة ، ويصور الحياة بألوان من الشعر والسحر والفتون ، فى إطار من الجمال والحب واللذة؟

أحقا أصدقاء على لن تجدوه بعد اليوم يبذل من سمته ليواسى ، ويميل من جاهه ليعين ، ويجعل بيته سكناً لكل نفس لا تجد الدعة ولا الأنس ، ومثابة لكل طائر لا يجد الروضة ولا العش ؟

أحقا مهاد الله سكت البلبل ، وتحطم الجام ، وتقوض المجلس ، وانفض السامر ، وتفرق الشمل ، وأقفر الربع ، وأصبح على طه الشاعر العامل الآمل أثراً وخبراً وذكرى ؟

لقد حدثنى ربع ساعة فى تليفون المنشق يوم الأربعاء ، فبشرنى أن قلبه انتظم وجسمه صحّ ووجهه شبا ، وأن الأطباء سمحوا له بالرجوع إلى بيته ، وأن استقباله فى الدار سيعود ، وأن مجلسه فى (الاميريكين) سينعقد ، وأنه سينتظر فى يوم الجمعة فى مكتبه ليقرأ علىّ النشيد الأول من ملحمة (اليرموك) التى اقترحتها عليه ، وربما خرجنا بعد القراءة إلى نزهة عادتنا فى طريق الأهرام؛ ثم ختم علىّ حديثه الطويل بضحكة حلوة فيها أمل ، وعبارة فكهة فيها تفاؤل ! ولكنها كان بين يوم الأربعاء الذى حدثنى فيه هذا الحديث ، ويوم الجمعة الذى ضرب لى فيه هذا الموعد ، يومُ الخميس الذى سكن فيه قلبه الطيب فلا ينبض بحياة ولا حب ، وسكت لسانه الحلو فلا ينطق ببشر ولا شعر : طلع صباحه الأسود الكئيب على غرفة على وهو يلبس ثيابه ويداعب أصحابه ، وينظر فى الداخل

فيرى طاقات الزهر بين المنضدة ، وفي الخارج فيرى ممرضات المستشفى يحملن المرضى ، فيهفو الشاعر العميد إلى أزاهيره التي تفتح قلبه بالعطور ، وإلى عرائسه التي تثمر شعره بالشعور ، فيخرج ليؤدي ما عليه من المال للصحة ، ومن الشكر للأطباء ؛ حتى إذا أبرأ ذمته من حقوق الناس أدار فيمن حوله من أصدقائه وذوي قرباه نظرة فاترة حائرة ، ثم أسبل عينيه ، وحر مغشيا عليه ! فخف إليه أساته الذين يشيرون الحافية ويعدونه السلامة ، وأخذوا يقلبونه ويفحصونه فإذا الجسد الجياش بالشباب والقوة هامد لا حراك به ولا حس فيه ! وهكذا في مثل ارتداد الطرف ذهب من أرض الآدميين إنسان ، وغاب من سماء العبقريين فنان !

والهف نفسي على أحبائه وقد سبهم ما سبق من غصة الريق وحرقة الجوى حين نعاه إليهم الناعي ! لقد كان كل معنى أقرب إلى على في أذهانهم الا معنى الموت . لذلك ظلوا متبلدين ساهمين ، يقلبون الأكف أسى وحسرة ، ويحركون الألسن إنكاراً ودهشة !

لا يا بديع الزمان ! ليس الموت كما زعمت خطبا صعب حتى هان ، ولا ثوبا خشن حتى لان ! إنما الموت تقبض الحياة وبقبضها من أزل الدهر إلى أبده ؛ لا تقترب من مقلته ، ولا تأنس بناحيته ، ولا تسكن إلى ريحه ، حتى يفجأها كالقضاء ، ويدهمها كالوحش ، ويختلها كالصائد ، ويختلسها كالقاص ! وهل الدنيا كلها بعض فيها وما فيها إلا معركة لا تفتر بين البقاء والفناء والخلدة والبلى ! أرحام تدفع ، وأجداث تبلع ، وهجوم فيه المرض والشهوة والأثرة ، ودفاع فيه الطب والسياسة والخديعة ، وصرعى هذه المعركة الضروس لا ينفكون يتناثرون من بين شق الرحا الهائلة أشلاء لا تشبع جوف الأرض ، ودماء لا تنقع غليل الثرى !

عرفت عليا منذ سبع وعشرين سنة على الضفاف الخضر من مدينة المنصورة . وكان حين عرفته شابا منصور الطلعة ، مسحور الساطعة ، مسحور المخيلة ، لا يبصر غير الجمال ، ولا ينشد غير الحب ، ولا يطلب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوي ينشدها الدهر ويرقص عليها الفلك !

كان كالفراشة الجميلة الهائمة في الحقول تحوم على الزهر ، وترف على الماء ، وتحفق على العشب ، وتسقط على النور ، لا تكاد تعرف لها بغية غير السبوح ، ولا لذة إلا التنقل . ثم تتبعته بعد ذلك في أطواره وآثاره ، فإذا الفراشة الهائمة على أرياض المنصورة تصبح (الملاح التائه) في خضم الحياة ، (والأرواح الشاردة) في آفاق الوجود ، (والأرواح والأشباح) في أطباق اللانهاية ؛ وإذا الشاعر الناشيء يغدو الشاعر المجاق تارة بجناح الملك ، وتارة بجناح الشيطان ، يشق الغيب ، ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة والشياطين بالناس !

كان علي — وا حسرتا عليه — من أصدق الأمثلة للشاعر الذي خلقته الطبيعة . والشاعر الذي تخلقه الطبيعة يكون في ذاته وفي معناه نشيداً من أناشيد الجمال ، ولحناً من ألحان الحب ؛ فيكون شاعراً في أخلاقه ومُثُله وأحلامه وهندامه وسلوكه ، وفي نمط حياته وأسلوب تفكيره وطريقة عمله وطبيعة صداقته . وأشهد لقد كان على برّد الله ثراه نسقاً فريداً في الصفاء والوفاء والمروءة والمودة . كان لا يطوي صدره على ضغينة ، ولا يحرك لسانه بنميمة ، ولا يقبض يده عن معروف ، ولا يعقد ضميره على غدر ؛ فلم تدع له هذه الصفات الشاعرة النادرة عدوا ، لا في نفسه ولا في الناس ، فعاش ما عاش وادع البال في سلام الحب وأمان الصداقة .

قضى علي عمره بالعرض لا بالطول ، وقد عيشه بالكيف لا بالكم ، وجعل همه في الحاضر لا في المستقبل ، ونظر إلى الشعر نظر البلبل إلى الشدو ، فكان يصدر عنه بالطبيعة إعلاناً لوجود ، وإبرازاً لنفس ، وكمالا لصورة ، وجمالا لحياة ! لذلك كان شعره تعبيراً صادقاً عن شعوره ، وتصويراً ناطقاً لهواه ، ونظاماً متسقاً مع خلقه وطبعه في الحرية والأصالة والوضوح والأناقة والسهولة والسلامة .

إن حياة علي طله كانت أشبه بالطيف خفق خفوق الملك على حواشي الروض ثم عبر ، أو الحلم نعم به رائيه في إغفاءة الفجر ، ثم زال أو حبات الندى تلألأت في وجه الصباح ثم ذهبت في متوع الضحى ، أو قطرات المطر سطعت في نفح النسيم ثم تبددت في عصف الريح . فالحزن على وفاته حزن على حبيب قضى ، وخير مضى ، وجمال ذوى ، وشباب تولى ، ووفاء غاض ، وفن ذهب . فإذا بكينا فإنما نبكي علينا لا عليه ، وإذا سألنا الله العوض منه فإنما نسأله لنا لا له . وكل ما علينا للفقيد العزيز أن ندعو الله أن يتغمده برحمته ، وأن ينزله منزلة الأبرار في نعيم جنته .

أحمد حسن الزيات